الثريات المعدنية بمساجد المغرب الأقصى من العصر المرابطي حتى العصر المريني (462 – 869هـ \ 1069 – 1464م) : قراءة أولية حول أصولها وتطوراتها الفنية

إعداد :

أ.د : آمال أحمد العمري

أستاذة الآثار الإسلامية – كلية الآثار – جامعة القاهرة

أ.د : علي أحمد الطايش

أستاذ الآثار الإسلامية – كلية الآثار – جامعة القاهرة

رامي ربيع راشد

مدرس مساعد – كلية الآثار – جامعة الفيوم

ملخص :

الثريات المعدنية ، من مجالات الفنون التطبيقية المهمة ، التي يمكن أن تعكس ملامح التوجه الفني السائد في عصر من العصور الإسلامية ، سواء أكان ذلك بالمشرق الإسلامي أو مغربه . هذه الورقة البحثية ، محاولة لتتبع الأصول الفنية لتلك الثريات بمساجد المغرب الأقصى ، خلال أهم ثلاثة عصور إسلامية ، شهدت تدفق التيار الفني الأندلسي بقوة على أرض المغرب . هل انعكس أثر ذلك التيار الأندلسي على مثل هذا النوع من الفنون التطبيقية ؟ بمعنى آخر هل كانت هناك صلة فنية بين هذه الثريات بالمغرب وبين مثيلاتها التي كانت بالأندلس ؟ وأخيرا ، هل شهدت تلك الثريات تطورات فنية جديدة على أرض المغرب ؟ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

لما كان جامع قرطبة الأعظم المثل المحتذى ، في عمارة وفنون مساجد بلاد الأندلس والمغرب ، لما له من مكانة فنية منقطعة النظير [1] ، فقد كان – بهذه المكانة – محل اهتمام المؤرخين على اختلاف مذاهبهم ، سواء أكانوا إخباريين ، أو رحالة وجغرافيين ، ويتجلى هذا الاهتمام حينما نطالع تلك الأخبار الخاصة بهذا الجامع المكرم حتى في أدق تفاصيله ، وأخص خصائصه [2] . كان من بين تلك الخصائص المهمة ، التي تحدث عنها هؤلاء المؤرخون ، ثريات هذا الجامع الأعظم ، والتي يمكن اعتبارها – وفق الإشارات المصدرية المتاحة – من أقدم الإشارات عن الثريات بمساجد الغرب الإسلامي .

تواترت الأخبار وتعددت عن ثريات [3] جامع قرطبة ، فجاء عند ابن غالب أن عدد ثرياته كبيرها وصغيرها مائتا ثرية وثمانون ثرية ، ثلاث من فضة ، وفي الثريا الكبرى المعلقة بالقبة العظمى ألف كأس وعشرون كأسا [4] . أما المقري – الذي نقل عن بعض المتقدمين كابن بشكوال وابن سعيد المغربي – فيعطينا معلومات أخرى ، إذ يذكر مرة ما أفادنا به ابن غالب من أن عدد ثريات الجامع مائتان وثمانون ثريا [5] ، ومرة أخرى يفيد بأن عدد ثرياته التي بداخل البلاطات (الأروقة) – سوى ما منها على الأبواب – مائتان وأربع وعشرون ثريا جميعها من لاطون مختلفة الصنعة ، منها أربع كبار معلقة في البلاط الأوسط ، أكبرها الضخمة المعلقة في القبة الكبرى التي فيها المصاحف حيال المقصورة (أي قبة المحراب) ، وفيها من السرج – فيما زعموا – ألف وأربع وخمسون [6] ، ثم يشير المقري إلى ما اتفق عليه كل من ابن غالب وابن

---

[1]– انظر : السيد عبد العزيز سالم : " العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها " . ضمن كتاب : " بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار " ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1992م ، القسم 2 ، صـ صـ 28 – 32 ، 50 – 99 .، باسيليو بابون مالدونادو : " عمارة المساجد في الأندلس " . ترجمة : د. علي إبراهيم منوفي ، منشورات هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) ، الإمارات العربية المتحدة ، ط1 ، 1432هـ \ 2011م ، جـ4 ، " غرناطة وباقي شبه الجزيرة الإيبيرية " ، صـ 181 .

[2]– انظر على سبيل المثال : أحمد بن محمد المقري التلمساني : " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " . حققه : د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، جـ1 ، صـ صـ 545 – 556 .

[3]– الثريا : مصابيح شبهت بكوكب الثريا لكثرة ضوئها . لا يعرف أصل صناعة الثريات بالضبط وإن كان الرأي الغالب من خلال استقراء مختلف المصادر ، أنها صناعة تطورت عن القناديل والمصابيح الزيتية القديمة التي عرفها الإنسان منذ القديم ، وتفنن في صنعها وعلقها بالمعابد والقصور (عند الإغريق والرومان) ، وتطورت صناعتها من الخزف إلى البرونز والمعادن الأخرى .
محمد حجاج الطويل : " الثريا " . معلمة المغرب ، مطابع سلا ، المغرب ، 1415هـ \ 1995م ، جـ8 ، صـ 2784 .

[4]– لطفي عبد البديع : " نص أندلسي جديد . قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة " . مجلة معهد المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، مج1 ، جـ2 ، ربيع الأول 1375هـ \ نوفمبر 1955م ، صـ صـ 298 – 299 .

[5]– المقري : " نفح الطيب " . جـ1 ، صـ 549 .

[6]– نفسه . صـ 551 .

سعيد من أن هناك ثلاث ثريات من فضة [7] ، وفي الختام يذكر أن َدور (قطر) الثريا العظيمة خمسون شبرا ، تحتوي على ألف كأس وأربعة وثمانين ، كلها موشاة بالذهب [8] .

هكذا وردت الأخبار عن ثريات جامع قرطبة الأعظم ، والتي كانت بلا ريب من عهد كل من ، الحكم المستنصر ضمن توسعته الكبرى للجامع (351 – 355هـ \ 962 – 966م) ، وكذلك المنصور ابن أبي عامر ضمن توسعته الكبرى أيضا للجامع (377هـ \ 987م) ، وربما – على غالب الظن – كان منها من عهد من سبقوهما . إننا من خلال هذه الإفادات المصدرية ، وبما كان – ولا يزال – عليه جامع قرطبة من مكانة فنية تربو على الجميع ، يمكن الجزم بتلك المكانة الفنية ، رفيعة القدر ، التي كانت عليها هذه الثريات ، من حيث مادة صناعتها ، ودقة وجمالية نقوشها وزخارفها ، مع ما اتسمت به بعض الثريات – كالثريا الكبرى أمام المحراب – من أهمية بالغة ، تتمثل في ضخامة حجمها ، وتوشيتها بماء الذهب ، غير أنه على الرغم من هذا كله ، لا يمكن – من خلال تلك الإفادات المصدرية – تصور كيف كانت هذه الثريات من حيث الشكل العام ، والخطوط الفنية الرئيسية .

إذا ما انتقلنا إلى بر العدوة من أرض المغرب ، فإن الحال سيختلف كثيرا ، إذ لا تزال مساجد المغرب ، تحتفظ بنماذج على قدر كبير من الأهمية من تلك الثريات ، يرجع أقدمها إلى العصر الموحدي (527 – 668هـ \ 1132 – 1269م) ، فهل هذا يعني أن الثريات لم تكن معروفة قبل ذلك بمساجد المغرب ؟ [9] .

يشير ابن أبي زرع ضمن حديثه عن الثريا الموحدية الكبرى بجامع القرويين بفاس ، إلى إشارة مهمة للغاية من الناحية التاريخية ، وذلك بقوله : (وكان قبلها في موضعها ثريا مثلها في الجرم ، ولكنها تخلقت بطول الدهر فتكسرت ، فهبطت ونقضت وسبكت وزيد عليها نحاس مثلها

---

[7] – نفسه . صـ 552 .

[8] – نفسه . نفس الصفحة .، وللمزيد عن بعض الإشارات المصدرية الأخرى عن ثريات المسجد الجامع بقرطبة ، وبعض مساجد بلاد الأندلس الجامعة الأخرى انظر : ليوبولدو توريس بلباس : " تاريخ إسبانيا الإسلامية " . ترجمة : علي عبد الرءوف البمبي وآخرون ، منشورات المركز القومي للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط1 ، 2002م ، مج2 ، جـ2 ، " الفن والعمارة " ، صـ صـ 244 – 245 .، مالونادو : " عمارة المساجد " . جـ1 ، " مدخل عام " ، صـ صـ 231 – 232 .

[9] – الحديث هنا قاصر على بلاد المغرب الأقصى على وجه التحديد ، أما بلاد المغرب على وجه العموم ، فإن البعض يفيد بأن هناك ثريا كبيرة عثر عليها في مخزن ملحق بالمسجد الجامع بالقيروان ، يمكن اعتبارها أقدم نموذج عثر عليه للثريات بمساجد الغرب الإسلامي ، إذ تشتمل على كتابة كوفية لنص تأسيسي ، يرجعها لعهد المعز بن باديس الصنهاجي ، فيما بين (421 – 443هـ \ 1028 – 1051م) .

محمد عبد العزيز مرزوق : " الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس " . دار الثقافة ، بيروت ، 1972م ، صـ صـ 171 – 172 .، عبد العزيز صلاح سالم : " روائع الفنون الإسلامية في المغرب الأقصى " . مركز الكتاب للنشر ، القاهرة ، ط1 ، 2009م ، صـ 55 .

) [10] . إن هذا النص المصدري يفيد بأن هذه الثريا الموحدية كان محلها أخرى مثلها في حجمها الكبير ، وأن هذه الموحدية قامت على أنقاض تلك السابقة عليها ، ويعلل ذلك الإجراء ، بأن الثريا السابقة كانت قد بليت وتكسرت بطول أمدها . إذا ما كان الأمر كذلك ، ألا يحملنا هذا على الاعتقاد بأن الثريا السابقة إنما هي تلك الثريا الكبرى التي زين بها هذا الجامع مع التوسعة المرابطية الكبرى به ؟

إن مما يؤكد هذا الاعتقاد ، هو ما شهده الجامع المذكور مع تلك الزيادة المرابطية ، من أعمال معمارية وفنية جديدة على جانب كبير من الأهمية [11] ، ويتمثل ذلك في المنبر (المتحرك) ومقصورته مما يلي جدار القبلة [12] ، وكذلك في المصلى الجنائزي مما يلي جدار القبلة أيضا ، بهذه الهيئة المعمارية والفنية الفريدة من نوعها ، غير المماثل لها في تاريخ عمارة المساجد المغربية ، سواء تلك السابقة أو اللاحقة [13] ، وأيضا في تلك القباب المقربصة فاخرة الصنعة ، رقيقة الذوق ، رفيعة القدر ، وثيقة الصلة بالفن الأندلسي [14] . إذا ما كان الأمر كذلك ، وقد شهد هذا الجامع مثل هذه الأعمال المعمارية والفنية المهمة للغاية ، فضلا عن تلك التوسعة الكبرى لبيت الصلاة ، فإن من اللائق مع هذا كله أن تكون هناك ثريا – أو أكثر – على جانب كبير أيضا من الأهمية الفنية ، تماشيا مع أهمية هذه التوسعة الكبرى من الناحيتين المعمارية والفنية ، لإضفاء مزيد من الجلال والهيبة على هذا المسجد الجامع .

اعتمادا على هذا ، فإن الذي يمكن اعتقاده هو أن هذه الثريا التي أشار إليها ابن أبي زرع ، التي حلت محلها الثريا الموحدية ، إنما هي تلك الثريا الكبرى التي ترجع إلى عهد التوسعة المرابطية بالجامع المذكور ، وكان الفراغ منها عام (538هـ \ 1143م) [15] . لكن كيف كانت

---

[10]– علي بن أبي زرع الفاسي : " الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس " . راجعه : عبد الوهاب بنمنصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ط2 ، 1420هـ \ 1990م ، صـ 81 .

[11]– للمزيد عن هذه الأعمال انظر : ابن أبي زرع : " الأنيس المطرب " . صـ صـ 73 – 76 .

[12]– يمكن اعتبار هذا المنبر المتحرك من أوائل – إن لم يكن أول – المنابر المتحركة التي عرفت بعمارة المساجد المغربية منذ العصر المرابطي ، وما ترتب على ذلك من إحداث ما يعرف بـ " بيت \ مقصورة المنبر " ، وأن ذلك كله إنما كان بتأثير من عمارة مسجد قرطبة الجامع . انظر : رامي ربيع راشد : " عمارة المساجد في عهد المولى إسماعيل العلوي (1082 – 1139هـ \ 1672 – 1727م) بمدينة مكناس : دراسة أثرية حضارية " . تقديم : أ.د عبد الهادي التازي ، كنوز للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 1434هـ \ 2013م ، جـ3 ، " الدراسة التحليلية " ، صـ صـ 49 – 51 .

[13]– عن هذا المصلى الجنائزي وأهميته من الناحيتين المعمارية والفنية انظر :

Boris Maslow : " Les Mosqées de Fès et du Nord du Maroc " . Paris , PP 165-173 ., Henri Terrasse : " La Mosqée Al-Qaraouiyin a Fès " . Paris , 1968 , PP 21-22 .

[14]– انظر :

Terrasse : " La Mosqée Al-Qaraouiyin a Fès " . PP 32-34 .

[15]– وهذا على خلاف ما ذهب إليه أستاذي التازي ، من نسبتها لعهد التوسعة التي أدخلت على الجامع في العهد الزناتي عام (345هـ \ 956م) . عبدالهادي التازي : " جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس " . دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1973م ، مج2 ، صـ 80 .

تلك الثريا المرابطية من حيث الشكل العام ؟ هل هذه الثريا الموحدية التي لا تزال قائمة إلى الآن ، لوحة (1) ، هي صورة لما كانت عليه الثريا المرابطية ؟

إن الذي يمكن اعتقاده ، هو أن هذه الثريا الموحدية إنما هي في واقع الأمر كذلك ، وأنها صدى حقيقي لما كانت عليه الثريا المرابطية ، سواء من حيث المظهر العام ، أو الخطوط الفنية الرئيسية ، ومما يؤكد ذلك ، ما سبق ذكره ضمن إشارة ابن أبي زرع ، من أن الثريا السابقة – المرابطية على حسب ما اعتقدته آنفا – تم نقضها وإعادة تصنيعها مرة أخرى بعدما زيد عليها من النحاس مثلها . إن هذه الإشارة المصدرية غاية في الأهمية ، إذ تؤكد حقيقة تم التوصل إليها من خلال الدراسة المعمقة لهذه الثريا ، ألا وهي : إن أكثر أعمال النقش والزخرفة بهذه الثريا ، إنما هي وثيقة الصلة كلية بالفن المرابطي ، وليس بالفن الموحدي .

مما لا جدال فيه لدى المتخصصين ، هو إقرار القول بأن الفن الموحدي كان يعتمد مبدأ البساطة والتجريد ، مع ما يتسم به من الوضوح والمتانة ، كانعكاس لمبدأ دعوتهم القائم على التقشف والتقلل ، بعيدا في ذلك عن الحشد الزخرفي ، والتداخل والتنوع ، والرقة والحيوية التي كان عليها الفن المرابطي [16] . إذا ما سلمنا بذلك ، فإنه بالنظر إلى التفاصيل الزخرفية المنفذة بأجزاء الدائرة السفلى (الصينية) لهذه الثريا ، لوحات (2 ، 3) ، بالإضافة إلى الحشوات الزخرفية التي تتخلل أضلاع قبتها المعرقة ، لوحة (4) ، بما هي عليه في كل منهما من تنوع شديد ، ودقة ورقة ، وحشد وتداخل ، مع حيوية مفرطة وجاذبية ، بصورة لا يمكن أن نجدها في الفن الموحدي ، فإن هذا مما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الأجزاء والحشوات الفنية ، إنما هي تلك التي كانت تتكون منها الثريا المرابطية ، وأعيد استخدامها – لنفاستها وقيمتها الفنية رفيعة القدر – مرة أخرى ضمن مشروع التجديد والإصلاحات الموحدية الجديدة عليها .

إنه من خلال دراسة العناصر الفنية التي تتسم بها تلك الأجزاء من هذه الثريا ، نجد أنها وثيقة الصلة بالفن الأندلسي من عصري الخلافة وملوك الطوائف ، مع ما طرأ عليه من تطور وتنوع لمسناه في مخلفات العصر المرابطي [17] . فها هي تلك القبة المعرقة التي تزين جوف هذه

---

[16]– انظر : ابن أبي زرع : " الأنيس المطرب " . صـ 76 .، ليوبولدو توريس بلباس : " الفن المرابطي والموحدي " . ترجمة : د. سيد غازي ، دار المعارف بمصر ، 1971م ، صـ صـ 48 – 49 .،

Henri Terrasse et Jean Hainaut : " Les Arts Décoratifs au Maroc " . Paris, 1925 , P 76 .

[17]– عن هذه الصلة الوثيقة بالفن الأندلسي والقرطبي على وجه التحديد وبعض ملامح هذا التطور انظر : الحاج موسى عوني : " فن المنقوشات الكتابية في الغرب الإسلامي " . منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ، سلسلة أبحاث ، 2009م ، منشورات عكاظ للطباعة ، 2010م ، صـ 71 .، عبد العزيز محمود لعرج : " جمالية الزخارف النباتية في الفن الإسلامي بجامعي تلمسان الكبير وسيدي بلحسن " . ضمن كتاب : " تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني " ، أعمال ملتقى دولي بتلمسان أيام 3– 5 أكتوبر 2011م ، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ، الجمهورية الجزائرية الشعبية ، 2011م ، جـ1 ، صـ صـ 218 – 219 .، مبارك بو طارن : " التأثيرات الفنية الأندلسية على المباني الدينية في تلمسان " . ضمن كتاب : " تلمسان الإسلامية " . جـ2 ، صـ صـ 236 – 239 .

الثريا ، لوحة (4) ، بما تحتويه بين عروقها (أضلاعها) من توريقات نباتية غاية في التنوع والتداخل والحشد الزخرفي ، مع ما تتسم به من رقة وحيوية ، تذكرنا تماما بالقبة المعرقة التي تعلو محراب الجامع الأعظم المرابطي بتلمسان (530هـ \ 1135 م) ، ذات النسب القرطبي ، وبما تحتويه بين عروقها كذلك من توريقات نباتية غاية في الرقة والجمالية وثيقة الصلة بالفن الأندلسي [18] . لوحة (5) . هذا فضلا عن تلك القبيبة المفصصة التي تعلو مركزها بصورة تذكرنا تماما أيضا بقبة محراب جامع قرطبة [19]. إضافة إلى ذلك فإن الورقة الكأسية ثلاثية الفصوص ، تلعب هنا في زخرفة الحشوات المكونة لقرص (صينية) الثريا ، دورا بارزا من حيث حضورها القوي كعنصر زخرفي ، مع رقتها وانسيابيتها ، وتنوع هيئاتها الزخرفية في أوضاع تناظرية بالتقابل والتدابر ، مع دقة ورقة في السيقان الملتفة حولها ، وذلك كله وفق أسلوب مفعم بالحيوية المفرطة ، والرشاقة والجاذبية الشديدة ، بما لا يمكن الاعتقاد معه بأن ذلك من نتاج العصر الموحدي ، وإنما الأقرب في ذلك أنه من نتاج العصر المرابطي الذي اتسم فنه بتلك السمات وثيقة النسب بالفن الأندلسي من عصري الخلافة وملوك الطوائف .

نخلص من هذا ، للقول بأن هذه الثريا الموحدية ، المؤرخة بعام (600هـ \ 1203م) [20] ، وتعد أقدم نموذج قائم إلى الآن بمساجد المغرب الأقصى ، إنما هي صورة حية ، تجسد لنا ما كانت عليه الثريات في العصر المرابطي ، من حيث الشكل العام ، والخطوط الرئيسية المتبعة في أعمال النقش والزخرفة ، وأن هذه الثريا الموحدية ، إنما قامت في حقيقة الأمر على أنقاض الثريا المرابطية التي استبدلت بها [21] . إذا ما كان الأمر كذلك فإن الذي يمكن اعتقاده هو أن جذور هذا الشكل العام وتلك الهيئة الفنية ، إنما هي وثيقة الصلة بثريات جامع قرطبة الأعظم ، الذي حرص المرابطون كل الحرص على اقتفاء آثاره ، معماريا وفنيا ، بمساجدهم التي أسسوها بالمغرب على يد المدرسة الفنية الأندلسية [22] ، فهل يمكن – والحال هكذا – أن يشذ فيما يتعلق بالثريات ، بما لها من أهمية فنية تعكس ذلك التوجه الفني السائد في هذا العصر ؟

---

[18]– عن صلة هذه القبة وفنونها بالفن القرطبي والأندلسي انظر : مبارك بو طارن : " التأثيرات الفنية الأندلسية " . صـ صـ 236 – 237 .، بلباس : " الفن المرابطي والموحدي " . صـ صـ 45 – 46 .

[19]– انظر : مالدونادو : " عمارة المساجد " . جـ2 ، " قرطبة ومساجدها " . صـ 171 ، لوحة مجمعة (60 \ 1) .

[20]– عبد الهادي التازي : " جامع القرويين " . مج2 ، 82 .

[21]– يتأكد هذا من كلام ابن أبي رزع – كما سبق ذكره أعلاه – في إشارته إلى أن الثريا السابقة – المرابطية – كان قد تم نقضها ثم أعيد سبكها وتصنيعها ، لتكون منها هذه الثريا الموحدية . ابن أبي زرع : " الأنيس المطرب " . صـ 81 .

[22]– يتضح ذلك جليا – على سبيل الإيجاز – في تخطيط الجامع الأعظم بتلمسان حيث الاتجاه العمودي بالبلاطات على جدار المحراب وقد كانت قبل ذلك ، تسير وفق التقليد السائد بالاتجاه الموازي للبلاطات لجدار القبلة . هذا مع ما تميز به البلاط المحوري من وجود قبتين إحداهما فوق مربع المحراب والثانية عند منتصفه – على خلاف المعهود من أنها تكون عند نهاية هذا البلاط مطلة على الصحن – بوسط بيت الصلاة ، كما هو الحال تماما بجامع قرطبة بعد الزيادة الحكمية به . وبخصوص قبة المحراب فهي من نمط القباب المعرقة (المضلعة) ، على غرار قبة محراب جامع قرطبة كذلك . أما واجهة محراب الجامع المذكور فهي صورة حية

إن هذه الثريا المرابطية الأصل ، تشهد عناصرها ووحداتها الزخرفية بتلك النسبة وثيقة الصلة بينها وبين الفن القرطبي ، ويتجلى ذلك في تلك القبة المعرقة التي تزين باطنها مع ما يعلو صرتها من قبيبة مفصصة ، لوحة (4) . أليس هذا النوع من القباب هو ما شهده جامع قرطبة لأول مرة بالأندلس في عهد الزيادة الحكمية به ؟ [23] . نجد كذلك الشرافات المسننة من النوع الحاد ، مع ما يزينها من توريقات نباتية بسيطة في أوضاع تناظرية بالتقابل والتدابر حول ساق مركزي ، لوحة (1) . أليست هذه الشرافات مع زخرفتها بهذا الأسلوب الفني هو ما عرف بصورة جلية بمدينة الزهراء في عهد الناصر وخلفه المستنصر ؟ [24] . فضلا عن هذا ، نجد التوريقات النباتية الملساء والمعرقة ، مع ما يتخلل تكويناتها الزخرفية – حسب ما سبق ذكره آنفا – من أوراق كأسية ثلاثية الفصوص ، غاية في الرقة ، يلتف حولها جميعا ، أغصان نباتية غاية في الانسيابية والدقة ، وفق أسلوب فني شديد التداخل حول ساق محوري يتوسطها ، لوحة (2 ، 3 ، 4) . أليست هذه هي العناصر النباتية التي شاعت في الفن الخلافي القرطبي وفق هذا الأسلوب الفني ؟ [25] .

تجسد واجهة محراب جامع قرطبة الأعظم ، كدليل قاطع على ذلك الحضور القوي للمدارس الفنية الأندلسية التي نقلت إلى مساجد المغرب تلك الصورة الفنية الرائعة من جامعها الأعظم بقرطبة . وأخيرا نشير إلى ذلك المنبر الرائق ، منبر الكتبية ، المصنوع بقرطبة برسم جامع علي بن يوسف بمراكش ، والذي يعد تحفة فنية بديعة ، وفي الوقت ذاته صدى قوي لمنبر جامع قرطبة الأعظم . انظر : السيد عبد العزيز سالم : " العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها " . صـ صـ 31 – 32 .، عبد الواحد ذنون طه : " التطور العمراني لمدينة تلمسان الإسلامية : دراسة في النصوص الخاصة بـ : أغادير ، تاكرارت ، المنصورة " . ضمن كتاب : " تلمسان الإسلامية " ، جـ1 ، صـ صـ 18 – 19 .، مبارك بوطارن : " التأثيرات الفنية الأندلسية " . صـ صـ 236 – 238 .، بلباس : " الفن المرابطي والموحدي " . صـ صـ 56 – 57 .

[23]– انظر : السيد عبد العزيز سالم : " قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس " . دار النهضة العربية ، بيروت ، 1971م ، جـ1 ، صـ صـ 391 – 392 .، مانويل جومث مورينو : " الفن الإسلامي في إسبانيا " . ترجمة : د.السيد عبد العزيز سالم ، د. لطفي عبد البديع ، مؤسسة شباب الجامعة ، الأسكندرية ، د.ت ، صـ صـ 141 ، 157 .، مالدونادو : " عمارة المساجد " . جـ2 ، صـ صـ 157 – 158 .،

E. Lambert : " Les Coupoles des Grandes Mosquées de Tunisie et Espagne aux IX et X siècles " . Hespéris.T., Tome XXII , Fasc.II , 1936 , pp 130 – 131 .

[24]– انظر للأهمية : باسيليو بابون مالدونادو : " العمارة الإسلامية في الأندلس . عمارة القصور " . ترجمة : علي إبراهيم المنوفي ، منشورات المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط1 ، 2010م ، مج1 ، " عصر الخلافة وعصر ملوك الطوائف " ، صـ صـ 103 – 104 .، نفسه : " عمارة المساجد " . جـ2 ، صـ صـ 88 – 90 .،

Basilio Pavon Maldonado : " Las Almenas decorativas Hispano-Musulmanas " . Instituto Hispano-Arabe de Cultura , Madrid , 1986 , PP 5- 12 .

[25]– انظر : عثمان عثمان إسماعيل : " تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى " . مطبعة المعارف الجديدة ، الهلال العربية ، الرباط ، ط1 ، 1993م ، جـ4 ، " عصر الدولة المرينية ودولة بني وطاس " ، صـ 383 .، بلباس : " تاريخ إسبانيا " . صـ صـ 521 ، 694 ، شكل 232 ، 520 .،

M.Terrasse : " Le Mobilier Liturgique Merinide " . B.A.M , Vol.10 ,1976 , PP183- 184 ., Junta de Andalucia ,Consejeria de Cultura : " Madīnat Al-Zahrā .Elsalón de Abd al – Rahmān III " . Córdoba , Marzo , 1995 , PP 45, 46, 48, 49, 50, Lám. 2,3,6,8,9,10 .

إنه من خلال الإشارات المصدرية التي تحدثت عن هذه الثريا الكبرى بجامع القرويين ، الأم بالمغرب ، نلحظ فيها استشعارا خفيا ، في الربط بينها – على قدم المنافسة والمضاهاة – وبين الثريا الكبرى بجامع قرطبة ، الأم بالأندلس . جاء في وصف التي بجامع القرويين أن : (عدد قناديلها خمسمئة قنديل وتسعة قناديل ، وزنتها سبعة عشر قنطارا ونصف قناطر وثلاثة عشر رطلا من النحاس ، والذي تحمله قناديلها من الزيت قنطار واحد وسبع قلل ... ولم تزل هذه الثريا الكبرى تسرج في ليلة سبع وعشرين من رمضان خاصة ...) [26] . ويزيد الجزنائي ضمن حديثه عن هذه الثريا ، في تقدير قطرها بقوله : (وفي دورها اثنان وثلاثون شبرا) [27] . أليس هذا هو ما قيل سابقا في وصف التي بجامع قرطبة من أن بها : (ألف كأس وعشرون كأسا ، يحترق فيها من الزيت مائة قنطار وخمسة وعشرون قنطارا ، منه في شهر رمضان خمسة وسبعون قنطارا ، لليلة تسع وعشرون منه ، وهي ليلة الإحياء على ختم القرآن ، خمسة وثلاثون قنطارا ، والأربعون قنطارا في الشهر كله ، ويحترق باقي العدد بطول السنة) [28] ، ويزيد المقري – نقلا عن ابن سعيد – ضمن حديثه هو الآخر عن هذه الثريا ، في تقدير قطرها بقوله : (ودور الثريا العظيمة خمسون شبرا) [29] .

من خلال هذه المعطيات المذكورة عن كل من الثريا الكبرى بجامع القرويين ، الأم بالمغرب ، والثريا الكبرى بجامع قرطبة ، الأم بالأندلس ، بصورة مطابقة – نلمس فيها أوجه مقارنة – حرص على تسجيلها المتأخرون فيما يتعلق بثريا جامع القرويين ، كما سبق وأن حرص على تسجيلها المتقدمون فيما يتعلق بثريا جامع قرطبة ، ألا تحملنا تلك المقارنات والمقاربات بين كل منهما على الاعتقاد بالصلة الوثيقة بينهما من الناحيتين الشكلية والفنية ؟

إن الذي يمكن إقراره اعتمادا على ما سبق ، هو أن هذه الثريا الموحدية ، إنما هي إعادة هيكلة لما كانت عليه الثريا السابقة المرابطية ، والتي كانت – هذه الأخيرة – بدورها صورة حية لما كانت عليه الثريات القرطبية بجامعها الأعظم ، ومن هنا يتبين أن هذه الثريات القرطبية ، إنما كانت الأصل الذي تفرعت عنه الثريات التي جاءت بعدها بكل من الأندلس والمغرب ، وعلى هذا يمكن القول أن هذا الشكل العام المخروطي ، المكون من عدة أطواق (أدوار) تقل تدريجيا كلما ارتفعنا لأعلى ، لوحة (1) ، مع ما يزين جوفه من قبة معرقة ، لوحة (4) ، بالإضافة إلى تتويج الطوق السفلي منه ، مع قناديلها بكافة الأطواق ، بالشرافات المسننة الحادة ، لوحة (1) ، مع الاعتماد بشكل رئيسي على التوريقات والسيقان النباتية في أوضاع تناظرية

---

[26]– ابن أبي زرع : " الأنيس المطرب " . صـ 81 .

[27]– علي الجزنائي : " جني زهر الآس في بناء مدينة فاس " . المطبعة الملكية ، الرباط ، 1387هـ \ 1967م ، صـ 69 .

[28]– لطفي عبد البديع : " قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب " . صـ صـ 298 – 299 .

[29]– المقري : " نفح الطيب " . جـ1 ، صـ 552 .

بالتقابل والتدابر حول ساق مركزي ، لوحات (2 ، 3 ، 4) ، كل هذه السمات الفنية العامة التي عليها هذه الثريا المرابطية الأصل – والتي تعد كما سبق ذكره أقدم نموذج بمساجد المغرب الأقصي – إنما هي تجسيد في واقع الأمر لما كانت عليه ثريات الجامع الأعظم بقرطبة ، والتي كانت بدورها – كما هو حال الجامع – النموذج المحتذى لثريات المساجد بكل من الأندلس والمغرب [30] .

إذا ما انتقلنا إلى العصر المريني ، فإنه من خلال دراسة بعض النماذج ، على رأسها الثريا الكبرى بالجامع الأعظم من فاس الجديد ، لوحة (6) ، والتي تحمل نقشا تأسيسيا يؤرخها بعام (678هـ \ 1279م) ، وتعد أقدم نموذج باق من ذلك العصر ، بالإضافة إلى الثريا الكبرى بالجامع الأعظم من رباط تازا ، لوحة (7) ، والتي تحمل هي الأخرى نقشا يؤرخها بعام (694هـ \ 1294م) [31] ، وأخيرا ثريا مصلى مدرسة العطارين من فاس البالي ، لوحة (8) ، والتي تحمل كذلك نقشا يؤرخها – على غالب الظن – بعام (725هـ \ 1324م) [32] .

من خلال هذه النماذج الثلاثة ، يمكن القول أن ثريات العصر المريني إنما جاءت على غرار ما سبقها تماما بكل من العصرين المرابطي والموحدي ، سواء من حيث الشكل العام ، أو النواحي الفنية الزخرفية . فمن حيث الشكل العام ، نجدها على غرار السابقة عليها في كونها ذات شكل مخروطي ، يتكون من عدة أطواق ، تقل تدريجيا كلما ارتفعنا لأعلى ، وبكل طوق من هذه الأطواق عدد من المساند الحاملة لكؤوس الاستصباح ، لوحات (1 ، 6 ، 7 ، 8) ، كما يتوج الطوق السفلي (الصينية) صف من الشرافات المسننة من النوع الحاد ، وهو الأمر كذلك في تتويج حواف كؤوس الاستصباح ، لوحات (1 ، 6 ، 7 ، 8) . من الداخل يملئ جوف هذا الشكل المخروطي قبة معرقة ، ملئت المساحات المحصورة فيما بين عروقها ،

---

[30]– يشير البعض – عرضا – إلى أن الثريات دخلت المغرب عن طريق الأندلس ، وهو الذي يمكن اعتقاده اعتمادا على ما سبق ذكره أعلاه . انظر : محمد حجاج الطويل : " الثريا " . صـ 2785 .

[31]– محمد العلوي الباهي : " ثريا جامع تازة " . مجلة الدارة ، تصدر عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض ، المملكة العربية السعودية ، العدد 2 ، السنة 18 ، المحرم ، صفر ، ربيع الأول 1413هـ ، صـ صـ 251 .،

Saghir Mabrouk : "Les Monuments Historiques de la Ville de Taza Du XII au XVII siecle " . Diplome d etude Approfondies , Sous La directionde : Mr.Les Professeeurs : Jean-Pierre Sodini et Michel Terrasse , Universite de Paris – Sorbonne , Paris I ,U.E.R , d art et d Archeologie , PP 97,99 .

[32]– تلاشت الكلمات التي تشير إلى تاريخ عمل الثريا على وجه التحديد ، إذ يقرأ النقش التأسيسي لها ، على حسب ما يفيد به البعض : (الحمد لله امر بعمل هذه الثريا المباركة \ برسم المدرسة السعيدة بفاس القرويين \ عمرها الله مولانا امير المسلمين وناصر الدين \ ابو سعيد ابن مولانا امير المسلمين \ وناصر الدين ابو يوسف بن \ عبد الحق ايده الله ونصره \ وكملت في ذي الحجة المبارك ... \ ... وسبعمائة) . وبما أن تاريخ الانتهاء من بناء المدرسة هو عام 725هـ \ 1324م ، على حسب ما في لوحة التحبيس ، فالغالب على الظن أنها تؤرخ بهذا العام المذكور .

M.Alfred Bel : " Inscriptions Arabes de Fès " . Paris , P 178 ., Aouni Lhaj Moussa : " Etude des Inscription Merinides De Fas " . These de Doctorat Nouveau Regime , Sous La Direction de : Mlle Solange Ory , Universite de Provence , AIH-MARSEILLE I , Departement du Monde Arabe , Option : Archeologie Islamique , 1991 , T.I , P 290 .

بتوريقات نباتية متنوعة في أوضاع تناظرية بالتقابل والتدابر حول ساق مركزي ، مع بروز الورقة الكأسية ثلاثية الفصوص ، كعنصر زخرفي أساسي ، دائم الحضور بتلك التوليفات النباتية ، لوحات (4 ، 9) .

إن كل هذه السمات الفنية العامة في الثريات المرينية المذكورة ، هي نفسها تلك التي نجدها بثريا جامع القرويين الموحدية ، ذات الأصل المرابطي ، ومن هنا يتضح ذلك الترابط القوي بين الأسلوب الفني المتبع في العصور الثلاثة ، والذي ينحدر في الأصل عن النموذج القرطبي على حسب ما سبق إقراره .

من الناحية الفنية ، يتأكد القول على الأهمية الكبرى لهذه الثريا الموحدية [33] ، والتي أصبح من المقرر الآن أنها مرابطية الأصل ، نظرا لما تعكسه لوحاتها الفنية من سمات وثيقة الصلة بالفن المرابطي ، حيث الحشد والتنوع ، والرقة والانسيابية ، والجاذبية الفائقة ، والحيوية المفرطة ، خلافا في ذلك لما يتسم به الفن الموحدي من بساطة وتجريد وتقشف ، ولعل مما يشهد لذلك أيضا ، تلك الثريا الموحدية الأصل ، التي يشتمل عليها البلاط الأوسط بالجامع الأعظم من مكناسة الزيتون ، والتي ترجع هي الأخرى إلى عهد الناصر الموحدي – المنسوب له ثريا جامع القرويين – إذ تحمل نقشا يفيد بأنها صنعت بمدينة فاس عام (604هـ \ 1207م) [34] .

من خلال دراسة هذه الثريا ، لوحة (10) ، يتضح الفارق الفني الكبير بينها وبين ثريا جامع القرويين ، على الرغم من كونهما يرجعان إلى عهد سلطان واحد ، هو الناصر الموحدي ، وصنعا كذلك بمكان واحد ، وهو مدينة فاس [35] ، إذ يلاحظ أن ثريا جامع مكناس الأعظم ، تتسم بصغر في الحجم ، وفقر في نقوشها الزخرفية ، مع تكرار رتيب لها ، بصورة تدل على أن هناك فرق جوهري بين كل من هاتين الثريتين ، وهو ما أحاول إبرازه والتأكيد عليه ، من الصلة الوثيقة للثريا الموحدية بجامع القرويين بأصلها المرابطي ، على خلاف التي بجامع مكناس الموحدية الأصل ، والتي يمكن اعتبارها ، تقليدا – غير متقن – لتلك التي بجامع القرويين . بناء على ذلك ، يتعين القول بأن القيمة الفنية للثريات المرابطية كانت تفوق بكثير ما جاءت عليه الثريات الموحدية فيما بعد .

---

[33]– للمزيد عن هذه الثريا من الناحية الفنية انظر : عبد الهادي التازي : " جامع القرويين " . مج2 ، صـ صـ 80 – 83 .،
Terrasse : " La Mosqée Al-Qaraouiyin a Fès " PP 57-58 .

[34]– جاء في هذا النقش ما نصه : (صنعت هذه الثرية بمدينة فاس حرسها الله لجامع مكناسة شرفه الله بذكره وكان الفراغ من عملها في العشرين من شهر ذي القعدة عام اربعة وستمائة) .
عبد الرحمن بن زيدان : " إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس " . تقديم : عبد الهادي التازي ، المطبعة الأهلية المغربية ، الرباط ، ط1 ، 1347هـ/ 1928م ، جـ1 ، صـ 102 .

[35]– ابن أبي زرع : " الأنيس المطرب " . صـ 81 .

فيما يتعلق بالثريات المرينية ، فالذي يمكن القول به هو أنها لم تحرز أي تقدم فني جديد ، يمكن أن يميزها عما سبقها من العصر الموحدي ، هذا مع الاعتقاد الكبير بأن تلك الثريا التي تزين الجامع الأعظم من فاس الجديد ، لوحة (6) ، إنما هي من نتاج يد أندلسية قرطبية على وجه التحديد ، لما تتسم به من خصائص فنية وثيقة الصلة – وبكل قوة – بفنون عصر الخلافة بقرطبة . أما ثريا مصلى مدرسة العطارين ، لوحة (8) ، فعلى الرغم من أن البعض يشير إلى أنها صنعت بغرناطة [36] ، إلا أن الذي يمكن القول به ، هو أنها من الناحية الفنية أقل إتقانا وجمالية مما عليه تلك التي تزين الجامع الأعظم من فاس الجديد . وعن الثريا الكبرى بجامع تازا الأعظم ، لوحة (7) ، والتي يعتبرها البعض لا مثيل لها وحسب في الفن الإسباني المغربي بل في العالم الإسلامي ، لكبر حجمها وقيمة نقوشها [37] ، فعلى الرغم من تفوق ثريا جامع تازا من حيث الحجم على ثريا جامع القرويين [38] ، غير أن الذي يمكن تأكيده هو تضاءل قيمتها الفنية ، أمام تلك التي بجامع القرويين ذات الأصل المرابطي ، إذ تشهد هذه الأخيرة تنوعا وغنى فنيا ، ورقة وجمالية فائقة في نقوشها ووحداتها الزخرفية ، بصورة تجعلها تربو على الجميع ، بما في ذلك ثريا جامع تازا المرينية ، وهو ما جعلها (أي ثريا جامع القرويين) – على حسب كلام تيراس نفسه – النموذج المرجعي لثريا جامع تازا [39] ، والتي جاءت حقا تقليدا مضاهيا لثريا جامع القرويين ، ولكن دونما الارتقاء إلى مكانتها الفنية رفيعة المستوى .

نخلص من ذلك كله ، لتأكيد القول على الأهمية الفنية الكبرى لتلك الثريا الموحدية بجامع القرويين ذات الأصل المرابطي ، فهي بحق تحفة فنية لا مثيل لها [40] ، تعكس ذوقا فنيا رفيعا ، لما كانت عليه هذه التحف المعدنية في العصر المرابطي ، والذي نؤكد على صلته الوثيقة بثريات جامع قرطبة الأعظم ، والذي كان بعمارته وفنه ، المنبع الذي لا ينضب معينه ، والأصل

---

[36]– مالدونادو : " عمارة المساجد " . جـ1 ، صـ 232 .

[37]– انظر :

Henri Terrasse : " La Grand Mosquée de Taza " . Paris , P 61 .

[38]– لعل هذا يتضح فيما يشير إليه الباحثون من أن قطر الدائرة السفلى من ثريا جامع القرويين يبلغ حوالي 2,25م ، في حين أنه يبلغ في ثريا جامع تازا حوالي 2,50م . وأيضا فإن المصادر تفيد بأن وزن ثريا جامع القرويين حوالي سبعة عشر قنطارا ونصف قنطار وثلاثة عشر رطلا من النحاس ، أما زنة ثريا جامع تازا فحوالي اثنان وثلاثون قنطارا من النحاس .

ابن أبي زرع : " الأنيس المطرب " . صـ صـ 81 ، 539 .، عبد الهادي التازي : " جامع القرويين " . مج2 ، صـ 80 .،

Terrasse : " La Grand Mosquée de Taza " . P 56.

[39]– انظر :

Terrasse : " La Mosqée Al-Qaraouiyin a Fès " . P 57 .

[40]– لعل مما يؤكد ذلك ، ما قاله عنها الجزنائي بقوله : (وفيها من الصنعة ما يعجز عنه الآن) . وإذا كان الجزنائي وهو من أهل القرن الثامن الهجري (14م) ، ذلك القرن الذي شهد تطور فني غير معهود بمدينة فاس خلال العصر المريني ، ورغم ذلك يصرح بهذا التفوق الفني لهذه الثريا ، والشهادة بالعجز عن القيام بمثل ما فيها من نقش وفن ، ألا يكفي هذا للدلالة على قيمتها الفنية ؟ .

الجزنائي : " جني زهرة الآس " . صـ 69 .

الذي يتفرع عنه كل ذوق فني راق بكل من الأندلس والمغرب ، إذ على غرار ثرياته ، قامت صناعة وفنون الثريات بأرض المغرب منذ العصر المرابطي ، على يد المدرسة الفنية الأندلسية .

لوحة (1) : الثريا الكبرى بجامع القرويين ، منظر عام .

لوحة (2) : النقوش الزخرفية بإحدى حشوات قرص الثريا الكبرى بجامع القرويين .

لوحة (3) : النقوش الزخرفية بإحدى حشوات قرص الثريا الكبرى بجامع القرويين .

لوحة (4) القبة المعرقة التي تزين جوف الثريا الكبرى بجامع القرويين .

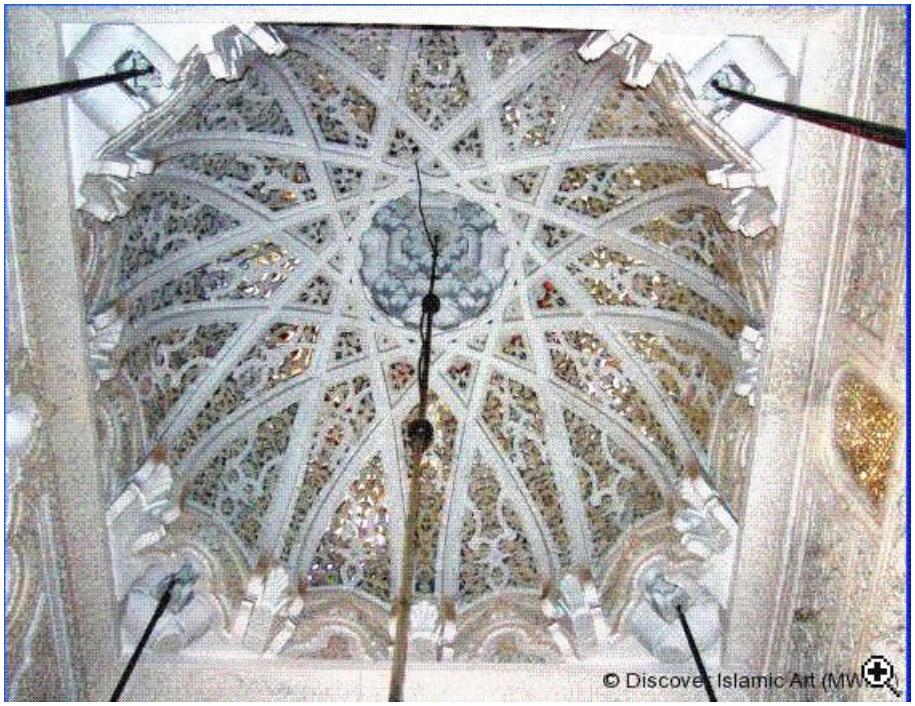

لوحة (5) : القبة المعرقة التي تعلو مربع محراب الجامع الأعظم المرابطي بتلمسان .

عن : https://www.google.com.eg/search?q

لوحة (6) : الثريا الكبرى بالجامع الأعظم من فاس الجديد ، منظر عام .

لوحة (7) : الثريا الكبرى بالجامع الأعظم بتازا ، منظر عام .

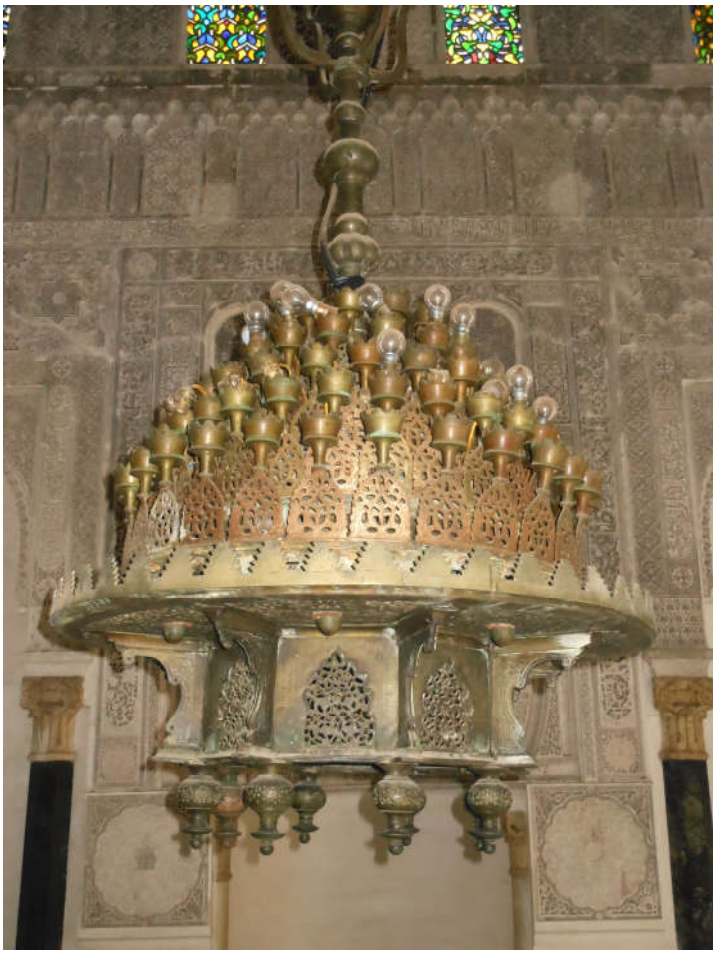

لوحة (8) : ثريا مصلى مدرسة العطارين من فاس البالي ، منظر عام .

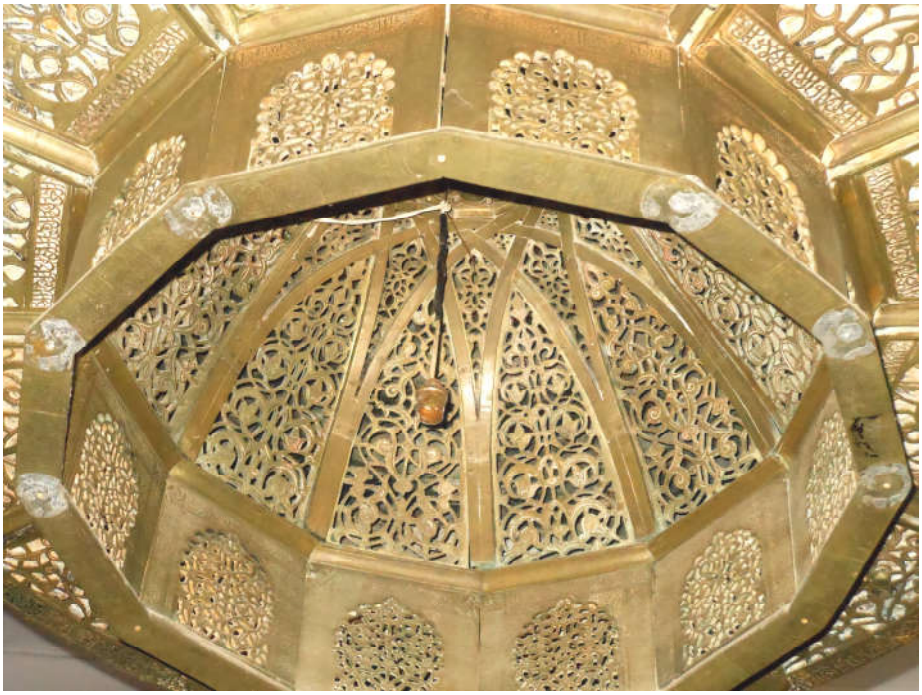

لوحة (9) : القبة المعرقة التي تزين جوف الثريا الكبرى بالجامع الأعظم من فاس الجديد .

لوحة (10) : الثريا الكبرى بالجامع الأعظم بمكناس ، منظر عام .